الجنقو مسامير الأرض.. قضارف رَبّك عارف [1]

طلحة جبريل [2]

أُقرُّ من السطر الأول، بأني لم أسمع بهذا الكاتب من قبل. كاتب نشر داخل وخارج السودان، لكن لم أقرأ له عملاً واحداً.

تلقيت روايته المنشورة على الإنترنيت، ووضعتها جانباً حتى يحين وقتها. هذا يحدث مع الكثير من الكتب بسبب مشاغل الحياة وتفاصيلها التي لا تهدأ. ذات يوم من أيام هذا الشهر الفضيل وجدت نفسي أنتظر في عيادة طبيب. زيارة عيادات الأطباء من الزيارات التي نتعمد تأجيلها. طبعتُ رواية «الجنقو مسامير الأرض» وقلت لعلها فرصة لتصفح هذا العمل، في انتظار نصائح الطبيب التي نادراً ما أمتثل لها. هذا حالي وابنتي طبيبة، ترى كيف حال الآخرين؟.

بدأت الصفحة الأولى، لكن لم أتوقف. إلى حدّ أني طلبت تأجيل الموعد، وغادرت العيادة. قرأت الرواية التي كتبت في 184 صفحة، من صفحات الطابعة دفعة واحدة. لم أتوقف.

---

(1) نشر بصحيفة الأحداث بتاريخ 4 سبتمبر 2010م.

(2) صحفي سوداني.

obeikandl.com

نقلتني الرواية إلى بيئة لا أعرف عنها شيئاً، وإلى مشاهد وصور، كُتِبت بعناية شديد، في بناء روائي متماسك، وبلغة صاعدة وهابطة. تصعد إلى قمم باسقة عندما يحاول الكاتب سبر أغوار النفس البشرية، خاصة أن شخوصه من أولئك الذين طحنتهم الحياة وظروفها والزمن وتصاريفه الصعبة. وتهبط لتنقل على لسان شخوصها مفردات عامية كنت أجد صعوبة في فهمها أحياناً، أدركت وقتها أن «لهجتي» هي لهجة منطقة، لا علاقة لها بلهجات مع باقي هذا البلد المترامي الأطراف. بهرتني الصور، وبراعة التصوير التي يعتمدها الكاتب لينقلك إلى مناطق شرق السودان، إلى مدينة القضارف على وجه التحديد.

ذات مرة، ذات يوم، ذات زمن. كنت رافقت والدي سائق القندران إلى القضارف. ما زلتُ أتذكر، أن الحمَّالين (العتالة) الذين كانوا ينقلون جوالات الذرة، إلى سطح القندران والترلة، كانوا يرددون أهازيج لها رنين. كنت أفهم بعض الكلمات وتضيع مني كلمات أخرى. لكن جملة من تلك التي كان يرددها أولئك الرجال الذين صَلَت أجسادهم شمس السودان الحارقة، كانوا يقولون «قضارف وربك عارف»، بقيت تلك الجملة عالقة في ذهني لا أعرف حتى يوم الناس هذا، ماذا تعني.

أول ما لفت انتباهي في الرواية اسمها. ترى ماذا تعني كلمة «الجنقو»؟. ومن حسن الحظ أن الكاتب وفي بداية الرواية شرح معنى هذا الكلمة التي استهوتني. فهمت أن «الجنقو» هم عمال زراعيين يأتون من الفاشر ونيالا، إلى مناطق شرق السودان، حيث يعملون في حقول الزراعة المطرية.

وتتبدل أسماؤهم مع تبدل الفصول ومواسم الزراعة. هم في صيغة المفرد «جنقو» أو «جنقوجوراي».

هؤلاء المطحونون، يأتون من دارفور، للعمل في حقول الذرة والسمسم، في القضارف أو بلدات أخرى على الحدود السودانية الإثيوبية، على أمل أن يعودوا يوماً إلى قراهم ومداشرهم يحملون «مالاً»، لكنهم يبقون في مناطق النزوح، يبددون ما يكسبونه في النهارات القائظة، في ليالي المتع الرخيصة. وتستمر حياتهم بهذا الإيقاع، ولا يعودن أبداً إلى قراهم.

تبدأ الرواية بصورة صادمة. يقول لنا الكاتب إن «ود أمونة» طفل وجد نفسها داخل السجن، لأن حكماً صدر بالسجن ضدَّ أمه، واضطر الصبي الصغير الذي كان في التاسعة من عمره أن يمضي عقوبة السجن معها، لأن لا أحد يمكن أن يتكفل به خارج أسواره. وهو سجن وأي سجن. سنعرف ذلك من المشاهد المتداخلة التي نقلها لنا الكاتب، على لسان شخصياته التي هدته مصاعب الحياة، أو على لسان الرواي في بعض الأحيان.

تبدأ الرواية بفقرة يلقيها علينا الكاتب بغتة، يقول «هذا ما تحصلت عليه من عدة حكاة ورواة، من بينهم حبيبتي ألم قشي (فتاة إثيوبية) والأم (أي أمونة)، مختار علي، الصافية، ود أمونة نفسه، مع بعض التدخل وقليل من التأويل والتحوير والالتفاف والتقويم والإفساد أحياناً، لحكاية ود أمونة في السجن.

هكذا تنطلق الرواية.

نحن ومنذ البداية أمام مأساة إنسانية، طفل في السجن لأن لا أحد يمكن أن يرعاه خارج أسواره. طفل يجد نفسه وسط نساء منحرفات، جاهلات، شريرات أحياناً، وبعضهن في السجن لأنهن ارتكبن جرائم، بسبب الفقر المدقع، بل قل الإملاق.

يتأقلم الطفل مع هذه البيئة التي تجسد كل التشوهات المجتمعية. عندما يسير في دروب الحياة، يجد نفسه وقد تحول إلى شخص غامض. لا هو رجل وسط مجتمع الرجال، ولا هو منحرف مثل المنحرفين. رجل في منزلة بين المنزلتين.

يقول الرواي «بيني وبين نفسي قدّرت أن ود أمونة وَلد ما نافع، زول يشيل جسمه بالحلاوة، ويكرش رجله زي البنات بالحجر، وما معروف تاني بيعمل شنو»، لكن إحدى شخصيات الرواية، امرأة تدعى «أدي» ومن اسمها يبدو أنها إثيوبية، تقول «ود أمونة دا أرجل زول في الحلة».

ثمة لقطات يبثّها الكاتب في ثنايا الرواية، تؤكد تمكنه من ناصية الوصف. نقرأ مثلاً «الجو صحو والسماء زرقاء وصافية، كنا نجلس تحت الراكوبة الكبيرة أمام القطية، وهي أجمل الأمكنة للونسة وشرب القهوة، ولا أظن أن أول من ابتكر الراكوبة كان يعني بها شيئاً آخر غير المؤانسة».

أو «استيقظنا مبكرين كعادة ناس البلد هنا، ينامون مع الدجاج ويستيقظون معه، ما عدا السكارى والعشاق يسهرون إلى ما بعد منتصف الليل ويستيقظون مبكرين».

ويصف منطقة القضارف قبل أن تتحول إلى «مدينة» فيقول «كان البلد

ما فيها غير المرافعين والقرود والحلوف والجنون، البلد كلها غابة كتر ولالوب ونبك».

وفي مقطع آخر «الصافية دي فيها أنوثة مجنونة، أنوثة وحشية، أنوثة كلبة معوبلة». أو هذه الجملة «الكلام عن النساء مثل أكل المولية، مر، حارق ولكنه لذيذ».

لكن اللغة أحياناً، وربما لضرورات السرد والتصوير الدقيق للبيئة تتحول إلى كلمات طلسمية، ربما لا يفهمها سوى أهل المنطقة أو من خبر لغتها المحكية، مثلاً هذه الجملة «شكرتنا الاثنين وتبعناها إلى سوق الكجيك، دفع لها ثمن رطلين من السمك الجاف الكجيك وكوم لكول، الفرندو وربع اللوبة البيضاء، كراعات الشرموط، لفتين المصران، وربع الكمبو».

أعترف أنني لم أفهم شيئاً. كل ما أدركته أن الكاتب يتحدث عن «مأكولات» البؤساء أولئك الذين نطلق عليهم في لغة السياسة «البرولتاريا الرثة».

لكن من هو صاحب رواية «الجنقو.. مسامير الأرض»؟، الرواية التي مُنِعت من التداول، ربما بسبب ما يعتقد البعض أنها جرعة زائدة من«الإباحية».

متى كانت لغة «الواقعية السحرية» في الأدب محتشمة؟.

سألت سليم عثمان القابع في قطر على أمل أن يعود إلى «الوطن الحبيب اللعين»، إذا كان يعرف شيئاً عن هذا الكاتب، أحالني على رابط لـقرأ

فيه، أن «عبد العزيز بركة ساكن» كاتب الرواية، ولد بمدينة كسلا شرق السودان، من أصول تنتمي لإقليم دارفور، درس الجامعة بمدينة أسيوط، يكتب الرواية والقصة القصيرة، ولديه من الأعمال الروائية: رواية «الطواحين» ورواية «رماد الماء » ورواية «زوج امرأة الرصاص وابنته الجميلة» ورواية «الجنقو مسامير الأرض» التي حازت على جائزة الطيب صالح للرواية في العام الماضي. مجموعة قصصية بعنوان على «هامش الأرصفة» ومجموعة أخرى بعنوان «امرأة من كمبو كديس» ومعظم هذه الأعمال ممنوعة من التداول.

ثم وجدت كذلك نصاً كتبه الكاتب نفسه يقول فيه «معظم كُتاب العالم الفقير ممتحنون، أما محنة الكاتب السوداني فهي الأعمق والأغور جُرحاً، من جانب خلق المادة الفنية، ثم طباعتها ثم نشرها، ثم نقدها... دعنا نبدأ بمحنة التأليف، حيث تلعب اللغة دور الممتحن الأول، فاللغة التي يفكر بها الكاتبُ كما هو معروف هي لغة المخاطبة اليومية ولغة حياته الشخصية والعامة، أي لغة المكان والزمان، وهذه اللغة في السودان هي العاميات السودانية المشتقة من اللغة العربية ولهجاتها وكثير من اللغات المحلية القبلية، وصلة الأديب السوداني باللغة العربية الفصحى في الغالب هي صلة تعلم مدرسي وأحياناً صلة عمل، أقصد لغة مكاتبات وتدوين أو تدريس وصلة قراءة. وعندما يبدع كِتابياً، مطلوب منه أن يستخدم اللغة العربية الفصحى، أي اللغة التي لا يُفكِّر بها، أي مطلوب منه أن يفكر بلغة ويكتب بأخرى، بالتالي يعاني ذلك المخاض التحويلي الهدمي البنائي،

الذي يعمل على مستوى الصورة والفكرة والإحساس بالشيء. والمحنة الأخرى، بعد أن ينجو ذلك الكاتب المسكين من براثن اللغة، ويكتب نصاً، عليه أن يراعي شيئاً غريباً جداً، وهو الأخلاق المُعْلنة على أنها الأخلاق الرسمية للدولة، وأعني بالمعلنة أنها المعلنة وليست بالضرورة أخلاق الشُعوب السودانية. ليس بالسودان كُتاب مارقين وليسوا مثل كافكا الذي يقول ذات نشوة» الكتابة مكافأة عذبة رائعة، لكن مكافأة على ماذا»؟

» الناشر الذي يقوم في الغالب بنشر أعمالي هو مكتبة الشريف الأكاديمية، لديَّ اتفاق غريب معه، وهو أن يعطيني ثلاثين في المئة من الكتب التي يقوم بطباعتها، على أن أوزعها بطريقتي الخاصة. بالرغم من أنني حتى الآن لم أجنِ شيئاً من الكتب التي أقوم بتوزيعها بنفسي في مدن وقرى السودان، الظن العام في أن الكاتب يكتب تجاربه ومغامراته لا غير، وإلا من أين له بكل تلك الحكايات الضالة؟».

هذا ما كتبه الكاتب عن نفسه. كاتب من دارفور يكتب لنا عن تفاصيل حياة «الجنقو» في » قضارف ربك عارف».

شيء مدهش. هذا هو وطننا، بلد مدهش.